الفكر السردي بين بلاغة الحلم ومنجز المحو
..حين يكون الناقد عبد الفتاح كيليطو...

الدكتورة حياة البستاتي
أستاذة بالتعليم الثانوي التأهيلي
المغرب

إلى: القراء الجيدين..تلك الطيور النادرة ..الأشد عتامة وفرادة من الكتاب الجيدين "قولة علقت بذهني من قراءة قديمة فكنتُ في ضيافتها"

ديباجة:

.. إنني لا أكتب مثله، ولكني أقرأ مثله .. وأنا أبحث عن قاريء يشبهني .. يقرأ مرفوع الرأس على حد تعبير "رولان بارط"..هل صادف هوى لي هواه..وهو الذي يقول: "لكم أدبكم ولي أدبي" .. قد يكون .. فأنا أقول: "لكم قراءاتكم ولي قراءتي" ...أيمكن أن يكون هذا الجينوم البشري / DNA في القراءة أيضا...لا أستبعد شيئا..

عبد الفتاح كيليطو والغرابة وقارئتي.

الكتابة في الأصل، مرور من الطريق التي لم يمر منها أحد من قبل، وكذلك أمارسها وأنا أرهف السمع لأسمع النص الذي كان شقا لهذه الطريق، و أحاور الكاتب الذي شقه بمعول ذاته الذي لم يشتره من الأسواق..بل شحذ شباته من نفسه ودمه ونظره اليقظ المعتبِر، وحين فكرت في دراسة "عبد الفتاح كيليطو" لم أكن قد قرأت شيئا عنه، ولا فكرت في البحوث التي طالت منجزه، ولم أدر حتى بوجودها وبكون الرجل قد كان بؤرة دينامية لنشاط وانشغال عدد من الدارسين ودراساتهم، كنت كعادتي أقتني كتبا متنوعة من الرباط أيام العطل، وتجذبني إليها عناوينها المكثفة العميقة، وإذ بي أنتبه إلى اسمه الذي لا يمكن أن يُترجم، يحضر في كثير من هذه المقتنيات حين كنت أتصفحها لأرتبها في مكتبتي الصغيرة ..متعة وإثارة مذهلتان كانتا تأخذاني إلى عوالم الفكر والتدبر.

ثم استوقفني اسمه مرة أخرى ، حين كنت أقدمه لتلامذة الأدب ناقدا يتوسل المنهج البنيوي لدراسة السرد العربي القديم..وحين كنت أقرأ له فقرات فريدة بلغة شعرية ..كان الرجل بالفعل يكتب ويبدع ويتفكر في كتابته وإبداعه..وجدت ممارسته اللغوية لوحة تشكيلية فيها ألوان مبهجة، وأنواع من الهندسات ما يثيرك إثارة تأخذك إلى

عالم يقترب فيه الحلم من الفكر..كتابة مقلقة قلقا جميلا تترك على صفحة وجهك أثرها ..لا يمكن أن تقطب جبينك متجهما وأنت منغمس في قراءتها كما قد يحدث لك مع بعض المقروءات ،لكنك قد تشرد حينا وتبتسم حينا، ثم تصير أكثر جدية في قراءة السطور بفرح وشغف ملاحظين ، كتابة تحتوي الأصل والنسخة، النص والصورة ، الوجه والمرآة ،الظاهر والباطن ، القديم والحديث، الشعر والنثر، العربي والأجنبي ، تَعْبُر بك إلى اصطلاح عجيب: "ذو اللسانين" أو "اللسان المشقوق إلى نصفين" ..كتابة تدخلها كما تدخل غابة في المساء، الكلمات والأفكار أشجار وأشكال رمزية توحي لك بأنه لدخول عالمها طقوس ذهنية خاصة. والقارئ لن يكون إلا ذاك المغامر الشجاع ذو الهمة..

تعرفت على هذا الاسم المغربي – الأثر الفريد– منذ أكثر من سبع سنوات، وذلك بعد إسناد مستوى الأولى باكالوريا /مسلك الأدب إلي في موسم دراسي سابق ، كان "كيليطو" صاحب المؤلف المقرر في الدورة الأولى، الموسوم ب" أدب الغرابة" ، وكنت قد صادفته بين كتبي وأنا أنظفها ذات صيف، فقرأته بشوق ونهم لا أعدمهما في قراءة أي كتاب ، وكان ما صادف هواي هو كلمة "الغرابة" في عنوان كتابه " الادب والغرابة" ، سألت نفسي : ما الذي يمكن أن يعنيه بها ؟..وكيف يجمع بين الأدب وبينها.؟.."الغرابة" مفهوم لا بد أنه يهز كل النفوس المتعطشة للمعرفة، والطامحة إلى كشف أسرار كثيرة تحيط بالإنسان وتتلبس بكينونته ومحيطه، هي في كل شيء، وفي محاورة دائمة مع وعيه باستمرار، تحيط به من كل جانب ، "الغرابة" هذه التي تُصادَفُ في المرة الأولى لكل الأمور والأشياء والأفعال..ثم تأتي الألفة، وتُنْسى الأسئلة، وتُهْمَل قضية التدبر حتى تغدو من الترف. وهكذا..مضيت إلى القراءة باستغراب وترقب..وأنهيت الفصول الأولى وأنا أقول لنفسي ليس هذا ما كنت أبتغيه وأفتش عنه في هذه الوريقات، كان همي فلسفيا وجوديا قبل كل شيء، ثم نسيت الهم المعرفي وانشغلت بالجانب التعليمي المدرسي..فقد كان مؤلفا مدرسيا علي أن أقدمه بشكل من الأشكال بثلاث قراءات: التوجيهية والتحليلية والتركيبة..لكن الأمر صار معي كما يحدث لمتذوق ذلك النوع من الطعام، الذي لا يستثيره إلا بعد إنهاء المضغ، وتوقف عضلة اللسان لتستشعر حاستها، فتبدأ حاسة الذوق بوعي ذاتها، ثم تظهر رغبة أكبر في معاودة الأكل وقد تم استطابته أكثر، واستحلاه ..إنها الغرابة حقا، فقراءتي المتمعنة لأفكاره ومواقفه الأدبية والنقدية، وتفطني إلى عمق القيم الفنية والجمالية لكتابته بعد ذلك، كشفت لي كتابة أصيلة صنعت لها طريقها الفريدة التي لا تترجم ، فالرجل ذو ثقافة واسعة بالسرد العربي القديم ،و قامته في الأدب فارعة ،وهو لا يفضل الكعب العالي ليزداد علوا، لأنه يلبس نوعا آخر من الأحذية الرياضية التي تجعله يتحرك بخفة وسلاسة نشيطا وبكامل لياقته الفكرية واللغوية، كاتب برتبة فارس في جميع نصوصه: حديثه عن النص واللانص، حديثه عن البلاغة العربية واليونانية ،ونظره في تاريخ الشاعر، كلامه عن السندباد البري والبحري ، عن عبد القاهر الجرجاني ومقامات الحريري والزمخشري والهمذاني ..كلام فيه اجتهاد لا تقدر إلا أن تحترمه..وأنا قارئة لا تصفق لكل مقروء، وقارئتي منذ بدأت تعي وتقرأ لا تقبل كل الأفكار التي تقرؤها.. حتى وإن

كانت لمن يُعدون روادا كبارا وحجة في مجالاتهم، فلها تصوراتها الخاصة، ولها مواقفها الثابتة التي تجعلها تحترم كاتبا وتهجر آخر، أو هي تحاوره وإن كان في سريرتها .."عبد الفتاح كيليطو" كان ناقدا من نوع آخر،..استطاعت قراءتي الثانية للكتاب أن تجعلني أُقبل على أعماله وأهتم بقراءتها، وأحترم كتابته احتراما كبيرا، أتذكر بعدها أني أحببت حصة المؤلفات أكثر من أي حصة أخرى وكذلك إلى اليوم، حين يكون المؤلف نقديا.

البداية مع هذا الكاتب كانت بهذا العمل الذي هو عبارة عن مقالات نشرها في فترة الستينات في منابر إعلامية مختلفة قبل أن يجمعها في كتاب..الكتاب الوحيد الذي عنونه دون استشارة أحد ، أما عناوين بقية الكتب فكانت تثبت بعد محاورات بشأنها مع أصدقائه من الأساتذة رواد الفكر المغربي : عبد السلام بنعبد العالي، عبد الكبير الشرقاوي، عبد الجليل ناظم، ثم تكررت لقاءاتي بالرجل دون قصد..وهذه المرة أدركت معه كيف يمكن أن نتحدث عن الفكر الأدبي والحلم المعرفي والكتابة المحو، وليالي القراءة والتأويل. والكتاب الناقص وعمى القرب والقراءة، أليس هو القائل في عمله "العين والإبرة": إن التخلص من المعرفة هو السبيل الوحيد لامتلاكها الحقيقي[1]، ألا يمكن أن تكون آلية التفتيت والتجزيء التي يركبها في كتاباته هي ممارسة لهذا التخلص وهذا المحو لتأسيس جديد؟؟؟ ما الذي كان يبتغي تأسيسه بالضبط؟ أي نوع من المعرفة التي كان يريد امتلاكها بهذه اللعبة؟؟ ما حقيقة علاقة العمى بالقراءة؟؟.كيف يصير التخلص امتلاك؟؟ تلك أسئلة تناسلت في ذهني بلا توقف كلما قرأت له أكثر..

1 – الحلم المعرفي ومسار حالم:

الذي يمارس المعرفة حالما، هو على أهبة المرور دائما ..عبور الشوارع والطرقات والمسالك الوعرة، وحيث تنتفي المسالك أيضا ..أليست الممرات الشاسعة الأنيقة اليوم لم تكن في البدء إلا مجرد أرض، ثم وطأتها قدم، فأقدام تلو الأقدام ، لتنشأ خطوط وآثار محو للطبيعة البكر التي كانتها ، لتتحول مع ظروف الزمن إلى كل هذه الأناقة المتوهجة بمصابيح مختلفة الأشكال تشع منها أضواء مختلفة الألوان..والذي يسلك متأبطا حلما معرفيا لا يرتاح كثيرا لما تتطور إليه وطأة القدم الأولى، لأن ما يتخيله من الخطى يضيق عليه أثرها، فهو لذلك في حال الوطأة الأولى باستمرار، والتي تمنحه طاقة إمكانات مذهلة لا تتوقف...ثم هو لا يمر بقدمه وحدها، بل يعبر بكينونته، بنسقه الثقافي، بوعيه بذاته وبالآخر ، بما يلتصق به من الماضي وما يتطلع إليه مما يمكن أن يأتي أو لا يأتي لاحقا، والحلم يمضي به إلى حد عالم المفاهيم، فالمفهوم والاصطلاح عند الحالم قضية جوهرية ، بل أس القضايا كلها لذلك تجده يحفل باللغة ويدور حول المعنى في رقصة مثيرة لا تفتن إلا هو، أي الحالم.."عبد الفتاح كيليطو" الذي أدرك منذ البداية أن كشف الحلم هو قتل له، والذي نجده في كثير من الحوارات معه باللغتين العربية والفرنسية موجزا مقلا مدركا عميق الإدراك لسرية الكتابة ومفتونا أشد الافتتان بدهاليزها وجنونها ومتشبثا بحق الأدب في الهمس، و المفهوم يرتبط عنده بآليات تترتب عليها آثار هي ما أنتجت لنا حاله الإبداعية التي تلبسته حتى في النقد.. وقد كان فطنا حذقا حين اختار أن يصدر كل هذه المحاورات التي كانت معه والتي جمعها في كتابه "مسار" بقولة "أوغست كونت": لا يمكن أن نعتلي

الشرفة ونرى أنفسنا مارين في الشارع في الوقت ذاته، كتابة كيليطو تجعله يعيش حلما لغويا جميلا، الحديث عنها يوقظ منها، تراه داخل عالمه يمضي كالفراشة يتنقل بخفة ورشاقة من زهرة إلى زهرة ،ومن لون إلى لون، لكنه ما أن يفكر في ذلك كله، يجد نفسه يتحول إلى حال الاستيقاظ، ولكنه، يظل مع ذلك محتفظا بالمشهد الماتع وأثره، ويبقى الفكر حالة مستمرة، وتبقى دراسة هذه الحالة مما يصعب القول فيها ..

الحالم المغربي "عبد الفتاح كيليطو" في كتابته كان يؤصل نظرية الكتابة والقراءة ، حتى في حال عدم قصده ذلك، والحديث عن التجربة الإبداعية كلام يخرج عن التجربة الإبداعية حتى في حال ارتقائه إلى مستوى الإبداع نفسه، لأنه في تلك الحال يكون إضافة أخرى فيقع بين بين ، أي بين الكلام عن الإبداع والإبداع، وأن تكون مبدعا وتضطر إلى النظر إليك مبدعا/ أو فيك مبدعا يستلزم كيان المرآة ، وطبيعة النسخ لأن المرآة والنسخ كليهما يملكان نفس الخصيصة : رؤية الواحد مثنى أو متعددا..والحلم حين يكون أعمق وأكثر سعة كما هي المعرفة، حينئذ يضحى النظر إليه في المرآة مسألة شائكة ، فالنظر فيها قد يكون خداعا وتيها ويبقى الوجه دائما هاربا. وربما هذا الأمر هو ما دفع الناقد كيليطو إلى القول: لربما ينبغي للكاتب أن يتجنب الحوارات ، أن يكتفي بكتبه ويدع قارئه يتدبر فيها أمره، وإن كان ولا بد فليكن حوارا واحدا....وعلى غرار مبدأ الروائي "وليام فولكنر": "أقتل أحباءك" كان "كيليطو" يعدل ويصحح ويحذف[2] ..ثم هو في رحلة سندبادية لا تتوقف بالرحلة السابعة، يمضي بنا من "أنبئوني بالرؤيا"، و"من شرفة ابن رشد"، و"الكتابة والتناسخ"، و"حصان نيتشة"،إلى "مسار"، "أتكلم جميع اللغات لكن بالعربية"، "الغائب"، "الأدب والارتياب"، "أبو العلاء المعري ومتاهات القول"، "المقامات"، "في جو من الندم الفكري"، "بحبر خفي"..وقد جمعت أعماله في أعمال كاملة من خمسة أجزاء: وهي على التوالي:

جدل اللغات /الماضي حاضرا/جذور السرد/حمالو الحكاية/ مرايا، وضمن الجزء الأول مثلا: نقرأ أعماله: لسان آدم/ ترحيل ابن رشد / لن تتكلم لغتي / أتكلم جميع اللغات، لكن بالعربية، لن تترجمني، اللغة- مع، بحبر خفي. والكتاب بالطبعة الثانية 2018م، إصدار دار توبقال للنشر، ينهيه بقولة واحدة جاءت على الغلاف / الواجهة الخلفية: ل"تشوانغ تسو": (أين عساني أجد شخصا قادرا على نسيان الكلمات كي أتمكن من التحدث معه)، وهو ما كان يقوم به في كل القراءات التي أنجزها لمقروءاته، فهو لا يقتفي أثر أحد من النقاد، الشيء الذي جعله يصل إلى استنتاجات لم يسبقه إليها ناقد ، مثل (اعتباره كتاب "أسرار البلاغة" للجرجاني حكاية استنادا إلى الشاهد الشعري والخطاب المجازي المتوسل به لشرح المجاز. وهو ما عده حسن نجمي وخالد بلقاسم فتحا في تاريخ قراءة الكتاب) [3]، بل لم يكن الرجل مهتما بقراءة الكتب النقدية كما كان مهتما بقراءة الأدب والسير فيه بتأن وصبر وتفكر، متشربا ما يقرؤه ، منتبها إلى التفاصيل، مراهنا على اللغة، راكبا بعض مفهومات الصوفية كالحجاب والباطن والسر ، ممجدا اللبس والمحو والنسيان والعمى والشيخوخة والعزلة، والبدايات.. ولا غرو أن مفهوم النسيان قد يكون

مرادفا لمفهوم المحو عند الناقد المغربي "كيليطو"، إنه المنهج العام لكتابته النقدية التي تنحو نحو التأسيس وإنجاز بناء جديد لأجل فكر جديد ورؤية جديدة للأدب والكتابة والقراءة عموما..ونستحضر هنا قضية النسيان كمنهج عربي متأصل في ثقافتنا النقدية من خلال حادثة "أبي نواس" مع "خلف الأحمر" الذي لم يأذن للشاعر بأن يقول الشعر إلا بعد أن يحفظ ألف مقطوعة شعرية ما بين أرجوزة وقصيدة ثم بعد ذلك يعمد إلى نسيانها..إنه نفس ما يقوم به مع الماضي فهو يفككه ويحلله ويفسره ويقف عند دقائقه، ليس من أجل أن يأخذنا إلى الماضي، بل ليؤسس لنا الوعي اليقظ بالحاضر، وليمضي بالأدب العربي الأصيل نفسه إلى المستقبل..إنه ناقد "دينامو" يوقظ هذه الخصائص العميقة الجوهرية للأدب العربي كنوع من الفكر الإنساني والكتابة العليا لتشق طريقها في الحاضر وما بعده..بل تنبه في وقت مبكر وهو يلقي دروسه باللغة الفرنسية في "الكوليج دي فرانس" إلى طاقة الهوامش التي لا تؤخذ بمأخذ الجد من طرف الباحثين في الكتب العربية القديمة، فمعه ، ليس هناك نص ساذج، كل النصوص تستحق بالغ العناية والتمحيص قصد بناء فهم عميق مختلف يمضي بنا إلى الأصول والبدايات ليفتحنا على عوالم لم تكن في الذاكرة ولا في الحسبان، منتبها الى ضرورة الحفاظ على طراوة كل ما يقرأ. سندباد محب للحكايات كالجدات، فما لا يسرد لا معنى له وهو لذلك يقول في معرض حديثه عن الفارس الشهير "دون كيخوتي دلا مانشا": (لا شيء يجدر بأن يعاش إلا ما هو جدير بأن يسرد[4]) فيحكي عن هابيل وقابيل، عن هيرودوت ، يروي عن أسبق الشعوب إلى الأرض، وعن اللغة البشرية الأولى، عن ابن طفيل وحي ابن يقظان وعن ابن رشد وكتبه وترحيله، مستضيفا المنهج المقارن ليستحضر به تجارب أجنبية إلى جانب العربية فيكتب بهوية مزدوجة وهو مدرك أنه لن يفي إلا لهوية واحدة. وهو التناقض الذي يتوخى به الشمولية والكتابة التي تنحو نحو الكمال، ولأن الكمال يتعذر، تصير الكتابة في هذا المستوى محوا..وفي تصدير من تصديراته نلفي قولة ل"بورخيص" يقول ضمنها : الكتاب الذي لا يتضمن نقيضه يعتبر كتابا ناقصا.[5]

وليس بنقده العالي ماكرا، كما ليست القضية في تصريحاته قضية تواضع أو ضده، إنما هي مرتبة نقدية عربية ناتجة عن اللسان المشقوق الباذخ الذي شق لصاحبه وجهتين: وجهة الثقافة العربية الواسعة والغنية في عصورها الذهبية، ووجهة الثقافة الغربية الحديثة المتألقة في أزمنتها الحديثة، فصار الناقد المتمكن من اللغتين والثقافتين بهذه المهارة التي فردت كثيرا من أبناء جيله منتجا للمعنى بعدما استوعب ما قرأه ثم نسيه وهو نفس ما قام به الشاعر أبو نواس مع محفوظه قبل أن يصير من شعراء العربية الكبار..

وقضية النسيان المتعمد كمنهج علمي للوصول إلى التطوير والإنتاج يرتبط به مفهوم آخر هو مفهوم الإتلاف، ف"عبد الفتاح كيليطو" كتب القصة والشعر والرواية ولكنه أتلفها فيما بعد ويقول عن ذلك: الإتلاف ضروري،

وهو يتمثل ما كان يطلبه أحد المخرجين من الممثل "جان جيرودو" الذي عرف ثرثرته في المسرح، كان يقول له: ce qui barre n'est pas siffle

بمعنى: "ما تتلفه لا أحد ينتقده.."[6]، وبذلك، كان وراء هذا المحو فلسفة تقوم على رفض النقص والإقرار به، وتأكيد سمة التطلع إلى ما هو كامل الذي لا يوجد إلا في الغامض والغريب والغائب..ولا طريق إليه إلا المعرفة، وحين تكون ناقصة دائما وتقر بنفسها بهذا النقص ، فإن دمغة الحلم تصير وسيلة الحفر والنبش والتنقيب المتاحة لكشف السر، وآلية المحو بمستوياتها المتعددة :الإتلاف والنسيان وجدلية القرب والبعد والباطن والظاهر والتفكيك والتفصيل والشقوق والهوامش..تبقى محركات نشيطة لإنتاج المعنى وإعمال التدبر في اللغة وباللغة قصد فتوحات جديدة في الأدب والنقد.

سؤال المنهج في كتابات "عبد الفتاح كيليطو":

الحديث عن المنهج باعتباره طريقة البحث وإنتاج الفكرة باتباع آليات مضبوطة ودقيقة يقصدها الباحث قصدا للوصول إلى المعرفة ،هو قضية شائكة في حقل الأدب والعلوم الإنسانية عموما، فقد يتوسل الباحثان نفس النهج لكن نتائج دراساتهما يمكن أن تكون مختلفة تماما، لأن القارئ في الأدب، لا يقرأ بموضوعية مهما جاهد في ذلك، فهو يقرأ بكيميائه الخاصة ، ولا ننفي أهمية المنظار وأدوات التنقيب المشتغل بها ،لكن العين التي تنظر من هذا المنظار، واليد التي تستعمل هذه الوسائل، تتحكم فيها ذات لها خصوصيتها وبصمتها المتفردة، ومسألة الاتفاق هذه ،عارضة في الأدب، فالأصل الاختلاف ، وعليه مدار الإبداع كله. ولكن التطور الذي لحق بحقل العلوم الحقة وبمناهجها طال الحياة الإنسانية برمتها، وأثر في ذات الناقد الأدبي وفي عينه وسلوكه في تمحيص النصوص وتقييمها وتقويمها وتفسيرها وتحليلها، وقد كان من نتائج ذلك جمع الأدب بخطابات أخرى كالإشهار والصورة والإعلام والدين والسياسة وكل مكونات الثقافة الأخرى داخل المجتمع ، ثم إنتاج نمط من الكتابات النقدية المتشابهة التي قد تستعرض منهجها أكثر مما تقدم من خلاله عملا، فكانت بذلك الممارسة النقدية كحل معادلة رياضية أو نشرة إخبارية عارضة، أو تقرير طبي يشخص حالة مرضية، أو مقالة تاريخية عن منهج أو مناهج نقدية محددة، وقل ما شئت إلا عملا نقديا..فالنقد إبداع ، والناقد يخلد اسمه في ذهن قارئه، ويترك أثره في نفسه ، متى كان مبدعا ،ولم تكن كتابته مجرد كتابة تقريرية وصفية باردة..والمنهج ، هنا معايير ومقاييس الناقد الذي يقيس بها الظاهرة المدروسة، ويستنتج من خلالها ما يعرضه على القراء ، وهي مما ينشأ له بسعة الاطلاع وكثرة القراءات في النصوص وفي دراساتها، فتصير مرجعياته التي يستوعب منها ما يتناسب مع عينه ومنظاره فيأخذ بها في كل كتابة ينتجها..فأين "عبد الفتاح كيليطو" من حديث المنهج؟..

.. بالنظر إلى "كيليطو"، فإن حديث الإبداع فيه يسبق حديث النقد, ذلك أنه مبدع وأديب قبل أن يكون ناقدا، وهو ما كان يصر عليه إصرارا في الحوارات التي أجريت معه، فنحن نقرأ له قوله: (كنت دائما مقتنعا أني أديب ، وحتى عندما أكتب النقد أعتبره أدبا وليس نقدا بالمعنى المدرسي أو الكلاسيكي)[7]، وقد يكون هذا الأمر وراء تبوأ الناقد هذه المكانة التي يتمتع بها بين النقاد العرب لأنه لا يقتفي أثر أحد ، مستقل في لعبته اللغوية، وحيد في فتوحاته التأويلية، لا يشبهه أحد، مفكك للتصلبات اللغوية المتكلسة على العلاقة بين الكلمات، تلك الصلات المستقرة الدائمة التي استكان إليها المتكلمون، واع بحياة الكلمة وتوهجها المستقل ، مستبطن لعوالمها ، اشتقاقاتها، ترتيب حروفها ، دلالاتها المتنوعة التي يمكن أن تحتويها –انظر تعليقه على كلمة "حبر" في كتابه "بحبر خفي" – يحتفظ بأسئلة طفله المهووس بتعرف الأشياء، فيفكك ويشتت ، ولكنه حين يلتقط فكرته ويستنتج استنتاجاته ، نلفيها لسان الرجل الرشيد الدقيق المنظم والمحنك، وإن مسألة الحفر في الأنساق الأدبية ل"عبد الفتاح كيليطو" ليس إلا تتبعا لدمغة القراءة التي لها كيفها المتناسب مع لعبة التأويل للكتب المقروءة – وإن كان الرجل يحتفي بالفعل القرائي بأي حال وأي كيف، فيجيب سائله عن كيفية القراءة ، قائلا: المهم أن تقرأ من غير أن تسأل كيف على غرار الأشاعرة ، فيقرأ "كيليطو" ليتجدد في الحكايات التي يولدها وليغترب في اللغة التي يكتبها للمحو ، وهو لا يثبت بقدر ما ينفي ويقوض ويمحو ، نسق ثقافي وحده، لا تستقصيه إلا عبر النظر إليه من زوايا عدة، ولا تنقل ملامح فعله القرائي إلا عبر التقاطه بأكثر من مرآة كما التقطه "خالد بلقاسم" في كتابه الرصين" مرايا القراءة" ليقربنا من الأديب المغربي المفتون بالفكر والحكايات والليل.وقد أشار هذا الدارس في مقاله عن أسئلة المنهج في كتابات "عبد الفتاح كيليطو" ضمن كتاب جماعي: (كيليطو من النقاد الذين أرسوا المنهج البنيوي والمنهج السيميائي في الدرس الأدبي العربي الحديث لكنه لم يوظفهما في تآليفه اللاحقة لأن الناقد عرف كيف يجعل النصوص تطوعهما لا العكس[8])، بل هو من القلة التي تعي ماهية المفهوم حين تشتغل به وتحوله إلى آلية لإنتاج المعنى بدل اجتراره جامدا والاكتفاء بالتعريف به والتعليق عليه، فكان بالفعل قارئا مستقبليا منشغلا بالقوانين البانية للنصية، ومنصتا جيدا للذات ونصوصها ،والآخر ونصوصه، محاورا ثقافيا عالميا ، يتلبس عنده النقد بالحكي ،وتتوسل في خطابه المعرفة باللعب ،ويتمازج في ذهنه الفكر والأدب ، وتتجاذبه في ذات الوقت القراءة والكتابة لتشكل منه حالة نقدية تنبثق مع ليل القراءة وتتمدد إلى صباح الكتابة، من نهارات اللغة العربية إلى ليالي اللغة الفرنسية، حالة تأنس بالهامش والغريب والجزئية الصغيرة ، وتمضي إلى تأمله والعناية به كعالم حفريات وآثار، على مهل وصبر وقد تحولا إلى آلية من آليات القراءة.

منهج القفز والوثب ورفع الرأس والتحري والديباجات و الإقرار بالنقص والندم، منهج استطرادات ومقامات ليس بمقدور الناقد أن يكتب بطريقة أخرى غيره، يقول:(ليست طريقتي في الكتابة من اختياري، ما هو شبه مؤكد أن

ليس بمستطاعي أن أكتب بطريقة أخرى..) [9]، وقضية المحو والندم ترتبطان عموما بمفهوم الكتابة عنده، فا(لمكون الأساس للكتابة، معدنها وطبعها. أن تكتب معناه أن تخطيء[10])فالصحة في الكتابة عرض ، والمرض أصل، وكل النصوص مريضة ناقصة..ناقد له جرأة على نقد كتابته والإقرار بقصر ذات يدها حتى حين يدرك أنه يعرف ما كانت تجهله قامات فكرية عالية في مثل نقده لابن رشد وفهمه لفن الشعر لأرسطو، فيرى أن الباحث ليس بمأمن من الخطأ، ثم هو يعمد في نقوده إلى نوع من المقارنة ليست خفية على قارئه، في عودته إلى التاريخ ووقوفه على الواقع الحاضر، وفي تأمله للثقافة العربية والثقافة الأجنبية، وفي تقديمه للتأليف والكتابة بين القديم والمعاصر، وجمعه بين "ابن القارح" بطل رسالة الغفران و"دون كيخوطي" في صفات مشتركة، حديثه عن "المعري" و"دانتي". "الجاحظ" و"رولان بارط".وهو باستراتيجيته في الكتابة والقراءة كان ممارسا لنمط من التفكير الأدبي الحيوي وداعيا إليه..الكتابة بالقراءة.

ومنهج كيليطو يمكن اختصاره في ثلاث كلمات هي: لن تتكلم لغتي، وهو يقول: (لو ألقي علي سؤال أو طلب مني تلخيص تجربتي في كلمتين لأجبت لن تتكلم لغتي ثلاث كلمات قد تصلح لسائر ما قلت وما دونت .[11])

شعرية النسخ ولانهائية القراءة:

من أهم المفاهيم التي أصلها "عبد الفتاح كيليطو" في ممارسته النقدية والإبداعية "مفهوم النسخ"، كما أومأ في "حصان نيتشه": لو لم أكن كاتبا لاخترت أن أكون ناسخا.. لو أني عشت فيما مضى من الأزمنة لكنت اخترت من دون شك حرفة النسخ [12]فهل يمكن أن يكون للمفهوم علاقة بغياب نظرية للأدب، وللأجناس الأدبية عند العرب؟ وبإعلانه – بتواضع الباحث المتمكن – عن فشله في بناء هذه النظرية، وهل لندمه الفكري علاقة بذلك؟ ، أو الأمر لا يتجاوز رهانه على أن لا يكتب مثل الأوروبيين خصوصا وأنه يلح على الوفاء للهوية العربية، إذ يقول:(ككاتب عربي يواجه رهانا صعبا، مجنونا ، ألا يكتب كالأوروبيين وأن يختلف في الآن عن المؤلفين العرب الذين اطلع على مصنفاتهم) [13]،لتكون قضية التكرار والإعادة نوعا من التأسيس والتحديث ، إن الناقد بالسرد، أو السارد بالتأويل "السيد عبد الفتاح المغربي" آخر الموسكيين وأسواري الزمن الحديث —كما نعته بعض الدارسين– يجعل غياب نظرية الأدب مسؤولا بشكل أو بآخر عن إقحام اصطلاحات ومفاهيم أرسطية وغربية غريبة في لحمة الأبحاث والدراسات الأدبية العربية، فمفهوم "الملحمة" مثلا، تم الاشتغال به في معلقة "عنترة"، والبحث عنه في ديوان "المتنبي"، وهو من ضمن ما تحاور فيه مع "حسن بحراوي"[14] في جلسة خاصة بالأدب الكلاسيكي، وكذلك بالنسبة للاصطلاحين "الكوميديا" و"التراجيديا" حتى تم التنقيب عن بديليهما في الثقافة العربية، والوقوف تلك الوقفة الغريبة– ذات شجون– أمام اصطلاحي "المدح" و"الهجاء" كمقابلين عربيين لهما ، والمتصفح لكتب "كيليطو" سرعان ما يظهر له قلق الرجل ورفضه لإهمال المؤسسة النقدية العربية للأدب غير الشعري رغم وجود مخزون نثري

مهم يشهد على أن الأمة ليست أمة شعر ووجدان فقط ، وإنما هي أمة سرود ،ومنطق لا يقل فطنة ولا حذقا عن المنطق الأجنبي، وربما يكون ذلك ما حمله على منهج المقارنة الذي توسل به في الأسماء التي قدمها والأعمال التي قرأها، وبقدر صعوبة المهمة التي اضطلع بها ليقنع بذلك العربي وغير العربي، باعتبار ترجمة أعماله إلى الاسبانية والإيطالية والإنجليزية ، فضلا عن الفرنسية ، إلا أن إتقانه للغتين العربية والفرنسية ومعرفته للثقافتين مكناه من النجاح إلى درجة عَدِّه محاورا عالميا موفقا، وهنا تظهر قيمة مفهوم "النسخ" الذي لم يكن تكرارا للنصوص والآثار، ولكنه إصرار على إثبات حق الثقافة العربية في المراجعة العلمية وحقها في الاعتراف بنبوغها ونباهتها التي لم تكن محصورة فقط في الشعر..لذلك كانت هذه النصوص الأصول هي الأرضية التي ينطلق منها الكاتب باستمرار، ينسخها بأمانة.ثم يعمد إلى لعبته العلمية المشتهاة، فهو يتتبع اللفظة إلى الفكرة بلا كلل ولا ملل، ثم هو يتتبع الفكرة إلى منعرجات التأويل المتناسلة، منتجا المعنى بالحلم، ومتوسلا بالخيال، ومشتغلا بالقراءة العميقة للمنسوخ، والكتابة الباحثة المنقبة عن التفاصيل حد زعزعة مسلمات الباحثين التي ركنوا إليها ردحا طويلا من الزمان، وعلى منهج "الكوجيطوالديكارتي": النص العربي القديم يسرد، وفيه حبكة جيدة ،إذن ثقافة السرود موجودة والتفكير بالسرد حاضر في ثقافتنا منذ القديم، وهو كفيل بإغناء المفهوم الحالي للأدب. يقول:

(ما ذا سنفعل بالمؤلفات الكلاسيكية؟ هل سنكتفي بردها الى التاريخ؟ أعتقد شخصيا أن دراستها واستغلالها من شأنه أن يغني المفهوم الحالي للأدب، وبالتالي الإنتاج العربي الحديث[15])..

ومسألة النسخ والناسخ والمنسوخ والتناسخ، تتجلى من جهة أخرى في الاستهلالات والتصديرات التي يختارها الناقد بعناية وانتقاء دقيق، ليورد تحتها مقالته. وهي لأسماء لامعة في سماء الفكر واللغة والنقد من الثقافتين، ليكون الأمر كما ذهب "مونطيني" حقا، حينما قال: الكلام نصفه لمن يتحدث ونصفه لمن يصغي، وهي القولة التي صدر بها مقالته: سوء التفاهم".[16]

وهنا تنشأ شعريها، حين يخرق القارئ بحريته المسؤولة منطوق النص الأصلي فيمعن في الإبحار والسفر، وينتج معنى لم ينتجه النص الأول، ليغري بركوب صفحات الماضي وهو يأخذ منها حكاياته ليعيد خلق حبكة أخرى وتشويق آخر متمسكا بخيط اللغة أو الحدث، ممتطيا صهوة القراءة، أو زارعا بذرتها، لما كانت القراءة بذرة نفسية حين تخالط تربة النص تتفاعلان فتخرج بذلك ريح طيبة وتصّعد أدخنة ليتكشف الوعي الإنساني والحقيقة الإنسانية لوهلة وبمرايا عدة. هل نحن أمام تخييل نقدي أم نقد تخييلي؟،هل سرد تداع وانطباعات؟ هل سيرة قارئ يتأمل مقروءه؟ هل هو نمط من الفكر الأدبي؟ ما هو مؤكد منه أن النسخ كان طريقة لقراءة الكتب عند "كيليطو"، وقراءة الكتب كانت هي الكتابة. والكتابة المتأملة نفسها ممارسة لنمط من التفكير.

ويمضي بنا الحديث عن شعرية النسخ، إلى بلاغة الحلم حيث الكائن الاستعاري يرافق القارئ ليمده بتخييلاته، وحيث الكتابة التي تتم بها القراءة مطاوعة ومسعفة لها في هيمانها وتأملاتها وسياحتها الحيوية النشيطة بالتفكير في المقروء وكتابة كل ما يتداعى إلى ذهن الناسخ الذي يخرج بلعبته عن المنسوخ إلى فضاءات الحكاية، والنص الحكائي كالنص الشعري استعارة أيضا، يقول "كيليطو" هل نتمكن من تأويل الاستعارة بدون افتراضات؟ ألا ترون أن التأويل أيا كان يستمد قوته من اتساع ثقافة المؤول وذكائه ومقاصده[17]

كذلك هو، ناسخ أمين لا يغش، لا يستطيع التخلص من معارفه، وأفكار مدهشة تأتي إلى ذهنه من مقروءاته، لذلك يتعمد الإتلاف والمحو والنسيان، ليبدأ التفكير، رافضا المسلمات باعتبارها نوعا من العنف معتدا بفكر أستاذه "رولان بارط" الذي شدد على أن العنف الحق هو أن نقول: "طبيعي أن نعتقد هذا الاعتقاد، هذا أمر بدهي"، ورفض هذه الوثوقية هو الذي جعل الكاتب ينتبه الى القرابة بين البلاهة والبداهة. ولذلك لم يكن "كيليطو" قارئا أو كاتبا بسيطا، بل كان مثقفا عاليا يمارس القراءة والكتابة بحرية كالحرية التي تحلق بها الطيور في السماء الزرقاء الصافية، ألم يقل في تدوينة على صفحته الزرقاء أيضا: الكتابة مستحيلة وإمكانها رتق خيوط المطر ونسجها[18]، أليست اللوحة من الشعر لا النثر؟..ومن باب الشعر دخل "نيتشه" إلى الفلسفة؟..

خاتمة: كتابة محاورة لنفسها..مؤسسة لفكر أدبي

إن شعرية النسخ وبلاغة هذا الحالم هو ما افتتن به الكتاب والدارسون من الشرق والغرب فأكثروا محاورته، وترجمة أعماله، وعددوا مرايا قراءاتهم لأوراقه وأفكاره، واجتهدوا ما أمكنهم الاجتهاد ليستطلعوا ما كتبه بحبره الخفي، فتاهوا في متاهاته، ومساره، ومجدوا لبسه وأسلوبه، وتعلموا معه سؤال القراءة ومغامرتها وقلقها ولا نهائيتها، وجدل القرب والبعد ،وانتبهوا الى التصلبات التي يقاومها ليس فقط في علاقة اللفظة باللفظة، ولكن في الركون الى التفسير الواحد للنص، فالقراءة المفردة الواحدة نمط من أنماط التصلب لا يقاومه إلا التركيز على نسبيتها ونسبية القارئ..

إن "عبد الفتاح كيليطو" فتاح في القراءة، وقريبا من طريقته، "فَتَّاحٌ" صيغة مبالغة على وزن "فَعَّال"، وهي متضمنة معنى كثرة فتوحاته في نقوده، حتى خط لنا مدرسة مستقلة في الكتابة، شعارها "ألف تأويل وحلم"، على غرار أول وأكبر عمل تأثر به، وهو: "ألف ليلة وليلة"، والتي تجعل ما يقوم به الناقد منتسبا إلى اللانهائي، ألفاظ تتناسل منها ألفاظ، وتأويلات تتمخض عنها تأويلات، ونسخ يليه نسخ، قد يكون للشخصية والمكان والزمان والحدث، نسخ من "البيان والتبين" ومن "الإمتاع والمؤانسة" ومن المقامات.. لكن في المنسوخ يتغير مفهوم السكون والحركة والصمت والصخب والعلاقات والمركز والهامش والهوية الثقافية لتوجه إلى معرفة جديدة ورؤية لم تكن إلا بقراءته التخييلية .. النسخ محرك المعمل النصي عند "كيليطو"، ينسخ شذراته المختارة، ، ثم يُدخلها إلى معمله في أرض متاخمة لأرض الشعر. لتخرج مشاريع نصية مركبة مربكة للمألوف وما وثقنا به..كالحلم والرؤيا..وبهما يمكن ممارسة قراءتها..صوته الاسفنجي يمتص أصواتا كثيرة، يتشربها ويمتلئ، وحين ترهف إليه السمع تلفاه متناغما ساحرا، تسقط منه الأصوات هنا أو هناك في نمنمات وثغثغات وانطباعات لا يخطئها الناظر. لا تخلو من التفكير..كتابة تنسخ ولكنها لا تكرر. تستطرد ولكنها في ذات الوقت تفكر، أو ليس الاستطراد فنا من التفكير من عهد الجاحظ، أو لم يُقِرّ بأن: تعليم فن الكتابة تابع حتما لتعليم فن التفكير، ومرتبط به عضويا وبالضرورة [19].. وعليه، فإن سرود "عبد الفتاح كيليطو" لم تكن إلا طرحا لمشروع فكري أدبي يراهن على اللغة والتخييل والحياة، وأساسه فيها قراءة أدبية لافتة إلى كيفية ممارسة قراءة الأدب تلك القراءة المنتجة للحياة والمنشطة للفكر، والمتأملة في الذات اللغوية، والجامعة للأزمنة في زمن واحد ممتد متصل إلى لحظة الإنجاز القرائي. والمراجعة لنفسها..ولا يمكن لقارئ كيليطو إلا أن يدرك أن بعض القراءات حقول من السدر والزعتر، وبعضها مدافن، بعض القراء طيور ملونة..شعراء..وبعضهم قتلة.. وكيليطو، ناسخ للحياة، شاعر القراءة، وصاحب معمل كتابة لا تشبه إلا نفسها..علامة فنية وجمالية وفكرية مسجلة.

الهوامش:

1 – عبد الفتاح كيليطو: العين والإبرة. ص: 35.

2 – عبد الفتاح كيليطو: مسار – التقديم.

3 – انظر مجلة بيت الشعر / تمجيد اللبس. ص: 36.

4 – حصان نيتشة. ص: 95.

5 – – جدل اللغات ص: .01

6 – ص: 19 مجلة بيت الشعر /عدد مزدوج 12/11 شتاء 2009م، ص: 19.

7 – مجلة بيت الشعر بالمغرب / تمجيد اللبس. ص: 27.

8 – قضية المنهج في النقد المغربي الحديث – منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية/ جامعة مولاي إسماعيل، مكناس2013 – ص: من: 89، إلى 109 بتصرف.

9 – في جو من الندم الفكري/منشورات المتوسط. ط: 1 / 2020م.

10 –في جو من الندم الفكري، ص: 45.

11– نفسه، ص: 69.

12 – جدل اللغات، ص: 213.

13 – في جو من الندم الفكري ص: 74.

15 – مسار/عبد الفتاح كيليطو – دار توبقال للنشر – الطبعة الأولى 2014نشر بدعم من وزارة الثقافة، ص: 21. /حوار مع عالية ممدوح – من حيث لا يحتسب –.

16 – الأعمال / الجزء الأول: جدل اللغات، ص: 347.

17 – مسار ص: 29.

18 – صفحة abdlfattah kilito، بتاريخ 3أكتوبر2014م.

19 – عبد الفتاح كيليطو: بحبر خفي، ص: 24.